قصة المذهب الشيعي

بقلم: زهير ماردیني

منذ أن بدأت طلائع الرأية ترفرف في سماء طهران، والحديث عن المذهب الشيعي يحتل مكان الصدارة في الصحف والمجلات العالمية. . . . ولا غرابة في ذلك الاهتمام، فالأغلبية الكبرى من أهل ايران من الشيعة، ولكن الغرابة كل الغرابة في هذا الخلط المتعمد بين المذهب الشيعي وبين العقائد الوافدة التي تظاهرت بالتشيع لضرب الدين الاسلامي وما يحوي هذا الدين من مثل عليا استطاعت الصمود على مر الأزمان والعصرو رغم ضراوة الأعداء وشراستهم.

إن هذه الأغلبية الكبرى التي تمثل (٩٢٪) من أهل ايران ظلت على ولائها لأول مذهب في الاسلام الذي قام قبل أن تقوم المذاهب الأربعة المعروفة ومن هذه النافذة، نافذة الشيعي تسلل أعداء الإسلام للإساءة الى سمعة الثورة الاسلامية، وكان أول ما تنبه الى هذا التسلل قائد الثورة وراح يعيد السهام إلى مطلقيها بجرأة وحزم وتصميم.

وحين سألت جريدة (لوموند) الباريسية السيد الإمام الخميني عن أسباب نداءاته المتكررة للتعاون الصميمي بين الشيعة والسنة، وربطه بين أهمية هذا التعاون وبين استقلال ارادة الدولة الاسلامية أجاب:

(إنني أعتقد تماماً أن الخلافات بين الشيعة والسنة كانت خلافات حول ألفاظ وكلمات وأن هذه الخلافات ضخّمها الأجانب ليمزّقوا وحدة الدول الاسلامية، ويستخدموا في تحقيق هذا الهدف بعض الحكومات العميلة للقوى الخارجية، ونسي الجميع أن وحدة الاسلام أمر بها الله وعمل من أجلها نبينا الكريم، وإننا نعتبر الشاه هو أحد من ساهموا في خلق هذه الخلافات، وعندما تتحقق الوحدة بين الوحدة الاسلامية فستكون إحدى القوى الكبرى في العالم.

وفي الماضي عندما وجدت القوى الكبرى أن الدولة العثمانية ـ التي لم تكن تجمع كل الدول الاسلامية ـ كانت قادرة أحياناً على المقاومة الكبرى وهزمت روسيا القيصرية، بادرت القوى الكبرى بتجزئة الامبراطورية العثمانية ـ بعد انتصار الحلفاء ـ الى أجزاء متعددة وتحولت الى دول تحكمها نفس القوى الكبرى. لقد دعونا دائماً إلى وحدة المسلمين وأن تطالب الشعوب الاسلامية نبذ الخلافات).

هذا ما قاله قائد الثورة الاسلامية قبل أن ينتقل من باريس الى طهران بساعات قليلة، فهل بالامكان الاقتراب من الحقائق التي أطلقها السيد الخميني يومذاك والتحدث عنها بلغة العصر؟ وما هي قصة المذهب الشيعي؟

سؤال كبير ولا شك، وسؤال شائك ومعقد، ومحاولة الاجابة عليه تحتاج الى مشقة واخلاص، ونحن سنحاول الاقتراب منه تاركين للقراء المجال الفسيح للرد بما يتناسب مع الحقائق العلمية المجردة.

فمنذ أن شبت نار الفتنة في المدينة المنورة سنة خمس وثلاثين هجرية بقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان، وأثارت من الخطوب الجسام، وسفك فيها ما سفك من الدماء، وأزهق ما أزهق من النفوس، وانتهكت فيها ما انتهك من الحرمات، منذ ذلك التاريخ والعالم الاسلامي يواجه المحن، لقد قضي على سنة الخلافة الراشدة باستشهاد الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، وأسس في هذا العالم الاسلامي ملك عنيف لا يقوم على الدين وإنما يقوم على السياسة والمنفعة، وكان يظن حين استقام أمر هذا الملك لمؤسسه عشرين عاماً، أنه سيمضي في طريقه وادعاً مطمئناً في بني أبي سفيان دهراً على أقل تقدير، ولكنه لم يستقر فيهم إلا ريثما تحول عنهم. . .

ثم لم يتحول عنهم في يسر ولين، لأن الفتنة لم تنقض بموت يزيد بن معاوية، وإنما قطعت مرحلة من مراحلها، ثم استأنفت عنفها وشدتها بعد موت يزيد، فعرضت المسلمين ودولتهم لخطوب ليست بأقل جسامة ولا نكراً من الخطوب التي رافقت الفتنة الكبرى في عهد عثمان.

وقد أصبح للمسلمين مثل بعينه هذه المثل العليا الكثيرة التي دعا إليها الاسلام، وجعلت الفتنة تدور حول هذا المثل الأعلى لتبلغه فلا تظفر بشيء مما تريد، وانما تسفك الدماء وتزهق النفوس وتنتهك المحارم وتفسد على الناس أمور دينهم ودنياهم، وهذا المثل الأعلى هو العدل الذي يملأ الأرض وينشر فيها السلام والعافية، والذي تقطعت دونه أعناق المسلمين قروناً متصلة دون أن يبلغوا منه شيئاً، حتى استيأس من قربه قادة المذهب الشيعي ولم يستيئسوا من وقوعه، فاعتقدوا أن إماماً من أئمتهم سيأتي في يوم من الأيام فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً. .

ولله حكمة أجرى عليها أمور الناس، والله بالغ أمره، وقد جعل لكل شيء قدراً، وها هو الأمل قد أطلّ على العالم الإسلامي بقيام الثورة الاسلامية في ايران. . . ويبقى السؤال قائماً:

كيف نشأ المذهب الشيعي ولماذا؟

الشيء الذي ليس فيه شك كما يقول الفقهاء والاعلام هو أن الشيعة، بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة عند المتكلمين ومؤرخي الفرق، لم توجد في حياة الإمام علي، وإنما وجدت بعد استشهاده بزمن غير طويل.

وإنما كان معنى كلمة الشيعة أيام الإمام علي هو نفس معناها اللغوي القديم الذي جاء في القرآن في قول الله عز وجل من سورة القصص: **﴿ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه. فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه﴾** الآية.

وفي قول الله عزّ وجلّ من سورة الصافات: **﴿وإن من شيعته لابراهيم﴾**.

فالشيعة في هاتين الآيتين وغيرهما من الآيات معناها الفرقة من الاتباع والأنصار الذين يوافقون على الرأي والمنهج ويشاركون فيهما، والرجل الذي كان من شيعة موسى كان رجلاً من

بني اسرائيل، والرجل الذي كان من أعداء موسى كان رجلاً من المصريين.

بذلك قال المفسرون القدماء الذين تلقوا التفسير عن الفقهاء من أصحاب النبي. وابراهيم كان من شيعة نوح، أي على سنته ومنهاجه. يرى رأيه ويدين بدينه، كما قال المفسرون أيضاً. فشيعة علي أثناء خلافته هم أصحابه الذين بايعوه واتبعوا رأيه، سواء منهم من قاتل معه ومن لم يقاتل. ولم يكن لفظ الشيعة أيام علي مقصوراً على أصحابه وحدهم، وإنما كان لمعاوية شيعته أيضاً. وهم الذين اتبعوه من أهل الشام وغيرهم وليس أدل على ذلك من نص الصحيفة التي كتبت للتحكيم بعد رفع المصاحف في صفين. فقد جاء في هذه الصحيفة:

(هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان. قاضى علي على أهل العراق ومن كان من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين. وقاضى معاوية على أهل الشام ومن كان من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين).

فلفظ الشيعة هنا لا يضاف الى علي ومعاوية كما رأينا، وإنما يضاف الى أهل العراق وأهل الشام. يريد كاتب الصحيفة أن يذكر من يناصر علياً وأهل العراق من المؤمنين والمسلمين في البلاد الاسلامية كلها، ومن يناصر معاوية وأهل الشام، ومعنى ذلك أن الصحيفة تلزم الفريقين المختصمين بما فيها، ولاتلزم هذه الفئة القليلة من المعتزلة الذين أبوا أن يشاركوا في ما جرى من قريب أو بعيد.

لم يكن للشيعة إذاً معناها المعروف عند الفقهاء والمتكلمين منذ أيام علي وإنما كان لفظاً كغيره من الألفاظ يدل على معناه اللغوي القريب، ويستعين في هذا المعنى بالقياس الى الخصمين جميعاً، فلم يكن لعلي قبل وقوع الفتنة شيعة ظاهرون ممتازون من غيرهم من الأمة.

والرواة يحدثوننا أيضاً ويحدثنا علي نفسه في كتبه الى معاوية بأن أبا سفيان أراد علياً على أن ينصب نفسه للخلافة حتى لا يخرج الأمر من بني عبد مناف، فأبى علي ذلك كما أباه على عمه العباس.

ولكن أحداً لم يقل أن العباس كان شيعة لعلي، ولا أن أبا سفيان كان شيعة لعلي أيضاً، وإنما عرض لهما هذا الرأي فلما لم يستجب لهما علي بايعا أبا بكر ودخلا فيما دخل فيه الناس، كما فعل علي نفسه مع الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه.

ويحدثنا الرواة كذلك أن المقداد بن الأسود وعمار بن ياسر، وربما ذكرا سلمان الفارسي، أظهروا الدعوة لعلي أثناء الشورى حتى خاف بعض أهل الشورى تفرق الناس، فطلب الى عبد الرحمن بن عوف أن يتعجل القضاء في الأمر. فلما بايع عبد الرحمن بن عوف عثمان دخل المقداد وعمار فيما دخل فيه الناس، كما فعل علي نفسه، ولم يقل أحد في ذلك الوقت أن المقداد أو عمار كان شيعة علي، وإنما رأيا ثم انصرفا عنه ليكونا مع جماعة المسلمين.

ومعنى هذا بلغة العصر أن علياً لم تكن له شيعة ممتازة من الأمة قبل الفتنة، ولم تكن له شيعة بالمعنى الذي يعرفه الفقهاء والمتكلمون أثناء خلافته، وإنما كانت كثرة المسلمين الكاثرة

كلها له أنصاراً وأتباعاً.

وقد استشهد علي وليس له حزب منظم ولا شيعة مميزة، بل لم ينظم الحزب العلوي ولم توجد الشيعة المميزة إلا بعد أن تم اجتماع الأمر لمعاوية.

هذا ما يرويه التاريخ، وجاء حديث القصاص وأصحاب السير والأساطير فخلطوا بالتاريخ خلطاً عجيباً حتى أصبح من أعسر العسر أن يخلص المؤرخ الى الحق الواضح الصريح في أيسر الأمور من كل ما يتصل بشأن من شؤون الشيعة، فلم يكتبوا حديث الشيعة متجردين من شهوات القلوب ونزوات النفوس، ولا متبرئين من الهوى الذي يفسد الرأي، ولا من عبث الخيال الذي يخفي حقائق التاريخ.

إن حقائق التاريخ تشهد بأن مذهب الشيعة إنما قام في حياة معاوية الذي استحدث في المسلمين بدعاً جديدة أنكرتها النخبة الممتازة مما بقي من صحابة الرسول، توريث الملك، وكانت عاقبة هذه البدعة وبالاً على المسلمين أي وبال، فما أكثر ما استحل الملوك من المحارم، وما أكثر ما سفكوا من الدماء، وأهدروا من الحقوق، وضحوا بمصالح المسلمين، وما أكثر ما كاد بعض الأمراء من أبناء الملوك لبعض في سبيل هذا التراث بالذي لم يبحه كتاب ولا سنة، ولا عرف مألوف من صالحي المسلمين.

وقد تحدث البلاذري عن رواته أن سعداً بن أبي وقاص الصحابي الجليل دخل على معاوية فقال:

(السلام عليك أيها الملك، فضحك معاوية وقال: ما كان عليك يا أبا اسحاق رحمك الله لو قلت: يا أمير المؤمنين. فقال: أتقولها جذلان ضاحكاً؟ والله ما أحب إني وليتها بما وليتها به).

إذن فالنخبة الممتازة من أصحاب النبي قد بدأت تنكر على معاوية أشياء كثيرة، ومن هذه النخبة انطلقت الدعوة الرافضة لكل ما يشذ عن القواعد الاسلامية.

ففي عهد معاوية بدأ الصراع الجدي بين النخبة وبين الحاكم الجديد الذي لم يلتزم بما التزم به الخلفاء الراشدون.

كان الاسلام في عهد الشيخين وفي عهد الامام يريد أن يحمل الناس على طريق العدل والقسط والحرية، لا يشقى فيها أحد لفقر أو ضعف أو خمول، ولا يسعد فيها أحد لقوة أو ثراء أو نباهة شان، وإنما يعيش الناس فيها كراماً قد وفرت عليهم حقوقهم بالمعروف، ليس فيها تفوق أو امتياز إلا بالدين والتقوى وحسن البلاء.

وكان الاسلام يريد أن يكون الخلفاء والولاء أمناء للناس على حقوقهم وأموالهم ومرافقهم، يديرونها على ملأ منهم وعن مشاورة، ويمضونها في غير تجبر ولا تكبر ولا اثرة ولا استعلاء، ويدبرونها كذلك لا على أنهم سادة يمتازون من الناس بأي لون من ألوان الامتياز، بل على أنهم قادة يثق الناس بهم ويطمئنون إليهم ويرونهم كفاة للقيام على أمورهم، فيعهدون إليهم بهذه

الأمور عن رضى واختبار، لا عن قهر أو استكراه، ثم يراجعهم في هذه الأمور من شاء منهم أن يراجعهم فيها. فإن استبان لهم أنهم أخطئوا كان الحق عليهم أن يعودوا الى الصواب، وإن استبان لهم أنهم انحرفوا كان من الحق أن يستقيموا على الطريقة.

وعلى هذا النحو الذي كان الاسلام يريده من أنحاء الحكم ومن أنحاء الصلة بين الحاكمين والمحكومين مضى النبي(ص)، حتى اختاره الله لجواره مضى خلفاءه على سنته لم ينحرفوا عنها إلا قليلاً من أمر عثمان، حين غلبه بنو أمية على رأيه، وما أكثر ما راجعه الناس في ذلك فصار الى ما أحبوا وأعطى النصفة من نفسه ومن عماله غير مرة. وأعلن التوبة أو استغفر بمشهد من المسلمين، وعلى منبر رسول الله، وعلى رغم ذلك ثارت عليه طائفة من المسلمين وطلبت إليه أن يخلع نفسه، بعد أن ظهر أنه لا يحسن مقاومة الطغاة من خاصته وعماله، فلما أبى أن يخلع نفسه قتلوه.

وبويع علي فتشدد على نفسه، وكان له مال قبل أن يلي الخلافة يغل عليه دخلاً حسناً، فخرج منه وجعله صدقة وفارق الدنيا ولم يترك فيهاإلا مئات من الدراهم، اقتصدها من عطائه ليشتري بها خادماً.

وجاء معاوية وقال ذات يوم بمحضر صعصعة ابن صُوحان:

(الأرض لله، وأنا خليفة الله. فما أخذت فلي وما تركته للناس فبالفضل مني) وقبله كان عثمان يقف على منبر الرسول(ص) ويقول: سآخذ من بيت المال حتى يرضى وإن رغمت أنوف. فقال له عمار بن ياسر: أشهد أن أنفي أول راغم، وقال له علي: إذن تمنع من ذلك. وقد رد صعصعة بن صوجان على معاوية بما يشبه كلام علي فقال: ما أنت وأقصى الأمة في ذلك إلا سواء، ولكن من ملك استأثر. فغضب معاوية وقال: لهممت. قال صعصعة. ما كل من هم فعل، قال: ومن يحول بيني وبين ذلك.

قال صعصعة: الذي يحول بين المرء وقلبه، وخرج ينشد قول الشاعر:

اريغـــــونـــــي إراغتكـــــم فـــــإنـــــي
وحـــــذفـــــة كـــــالشجـــــا تحـــــت الـــــوريـــــد

على هذه السياسة سخطت الشيعة، وعارضت في كثير من الجدية حتى قتل منها حجر بن عدي وأصحابه، وعلى هذه السياسة سخطت الشيعة وعارضوا بسيوفهم وألسنتهم فقتلوا وقتلوا، وعلى هذه السياسة سخط الصالحون من أصحاب رسول الله والتابعون لهم بإحسان، ولكنهم كانوا ينكرون في أنفسهم، وربما جمجموا ببعض النكير. وكان عامة المسلمين، الذين يرون هؤلاء الصحابة التابعين ويسمعون منهم، ينكرون مثلهم ويجمجمون، ومعاوية نفسه وقد ظهرت شيعة الحق في عهده كان يمكر كثيراً من أمره حين يثوب إليه فضل من حلمه وعقله فيذكر سيرة رسول الله وخلفائه ويوازن بينها وبين سيرته. ويحدثنا المؤرخون بأن معاوية لم يتلق الموت مطمئناً إليه حين ألمَّ به، وإنما كان يتوجع ويظهر الجزع ويكثر من ذكر حجر بن عدي، ومن ذكر

اسرافه في أموال المسلمين، وزعم الرواة أن قتل حجر بن عدي كان له صدى حتى في أعماق دار معاوية، فقد حدثنا البلاذري: إن معاوية صلى يوماً فأطال الصلاة وامرأته تنظر إليه. فلما فرغ من صلاته قالت له امرأته: ما أحسن صلاتك لولا أنك قتلت حجر وأصحابه.

فقد كان قتل حجر ظلماً وحدثاً من الأحداث الكبار. لم يشك أحد من الأخبار الذين عاصروا معاوية في أنه كان صدعاً في الاسلام، بل لم يشك معاوية نفسه في أنه كذلك، فهو لم ينسه قط منذ كان الى أن انقضت أيامه، ثم هو لم يذكره قط كما ذكره في مرضه الذي مات فيه، فقد كان يقول أثناء مرضه: ويلي منك يا حجر! أن لي مع ابن عدي ليوماً طويلاً..

لهذا انطلقت الدعوة الشيعية صارخة ضد التصرفات التي أقدم عليها معاوية، والتي تخالف الأسس الاسلامية، فالشيء المحقق هو أن معاوية قد استكره نفر من الصحابة على بيعة ابنه يزيد، وفي عهده استقر في الاسلام لأول مرة الملك الذي يقوم على البأس والبطش والخوف، والذي يرثه الأبناء عن الآباء، وأصبحت الأمة كأنها ملك لصاحب السلطان ينقله الى من أحب من أبنائه، كما ينقل إليه ما يملك من وسائل المال الجاه.

وقد تم ذلك سنة ست وخمسين للهجرة، أي قبل أن ينتصف القرن على وفاة رسول الله(ص)، وروى الطبري أن الحسن البصري قال:

(أربع خصال كن في معاوية، لولم يكن فيه منهن إلا واحدة لكانت موبقة):

انتزاؤه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها أمرها بغير مشورة منهم، وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة، واستخلافه ابنه بعده سكيراً خميراً يلبس الحرير ويضرب بالطنابير وادعاؤه زياداً، وقد قال رسول الله:

الولد للفراش وللعاهر الحجر، وقتله حجر بن عدي، ويل له من حجر وأصحاب حجر، ويل له من حجر وأصحاب حجر..).

ولم يلبث هذا النكر الذي استحدثه معاوية أن تكاثر، ولم تكن عاقبة هذا كله على آل أبي سفيان إلا خروج الملك منهم وانتقاله الى غيرهم، فقد مات يزيد الذي أحدث في الاسلام شروخاً ونكبات ما تزال آثارها بادية حتى الآن ولما يملك يزيد إلا أربع سنين، قتلته لذته أشنع قتلة، فقد كان، فيما زعم الرواة، يسابق قرداً فسقط عن فرسه سقطة كان فيها الموت..